المعانى الافلاطونية عند المعتزلة

بقلم الاستاذ محمود الخضيرى

عضو بعثة الجامعة المصرية بباريس

الى العلامة الجليل الاستاذ السيد مصطفى عبد الرازق الذى يرجع اليه الفضل فى احياء الفلسفة الاسلامية فى مصر وتأسيس دراستها فى الجامعة المصرية ، أقدم هذا العمل تحية تلميذ يعترف بما لأستاذه عليه من جميل ؟ م. م. خ.

***

مقـدمة عامة

الفصل الأول

يبدو لأول وهلة أن دراسة المعتزلة تقصينا بعض الاقصاء عن الخطة الفلسفية ، وذلك لأنه لم تجر العادة على اعتبارهم بعض أولئك الذين يمثلون أو يواصلون الأنحاء الفلسفية الاغريقية عند المسلمين ، ويرجع هذا أيضا إلى أن الفلاسفة المسلمين لا يتحدثون عنهم ؛ وأكبر السبب فى ذلك منشأه اختلاف الاصطلاحات ، وهم إذا عرضوا لهم اتهموهم بسوء فهمهم لمقاصد الفلاسفة ، وقد يعترفون أنهم لا يستطيعون أيضا أن يفهموا مقاصد المعتزلة .

ومما يؤيد هذا ما جاء فى حديث أبى سعيد السيرافى النحوى المتوفى سنة ٣٦٨ ﻫ (٩٧٨ م) إلى متى بن يونس القنائى الفيلسوف المتوفى سنة ٣٦٨ ﻫ (٩٣٩ م) : «...وهذا الناشىء أبو العباس قد نقض عليكم ، وتتبع طريقكم ، وبين خطأكم ، وأبرز ضعفكم ، ولم تقدروا إلى اليوم أن تردوا عليه كلمة واحدة مما قال ، وما زدتم على قولكم : لم يعرف أغراضنا ولا وقف على مرادنا وإنما تكلم عن وهم »(١) .

والناشىء المذكور هو أبو العباس عبد الله بن محمد الأنبارى شرشر ، معتزلى من الطبقة الثامنة ، توفى فى مصر عام ٣٤٦ ﻫ (٩١٥ م) ، ألف كثيراً فى نقض كتب المنطق ، كما وضع كتابا عنوانه « المقالات » شرح فيه مذهبه فى العدل(٢) .

وكذلك ما كتبه ابن القفطى المصرى (٦٤٦ ﻫ — ١٢٤٨ م) فى كتابه « تاريخ

---

(١) أبو حيان التوحيدى (٤٠٣ ﻫ — ١٠١٢ م) مقتبس من مقدمة السيد حسن السندوبى لكتاب المقابسات ، القاهرة سنة ١٩٢٩ ص ٨٢ .

(٢) راجع الأستاذ (مكس هرتن) «المذاهب الفلسفية للمتكلمين فى الاسلام» بون سنة ١٩١٢ ص ٣٤٨ «Max Horten:Die philosophischen systeme des spekulativen Theologen im Islam» وسنقتصر فى الاشارة الى هذا الكتاب بقولنا : هرتن — المذاهب .

الحكماء» عناسبة كتاب أرسطو «السماء والعالم»، (وقد كان العرب يعتبرون هذين الكتابين ـ الصحيح والمنتحل ـ كتابا واحدا) : « ... كتاب السماء والعالم .... ولأبي هاشم الجبائي عليه كلام وردود سماه التصفح ، أبطل فيه قواعد أرسطوطاليس.... وسمعت أن يحيى بن عدى (٤٠٧ هـ — ٩٧٤ م تقريبا) حضر مجلس بعض الوزراء ببغداد في يوم هناء ، واجتمع في المجلس جماعة من أهل الكلام فقال لهم الوزير : تكلموا مع الشيخ يحيى ؛ فانه رأس متكلمي الفرقة الفلسفية ؛ فاستعفاه يحيى ، فسأله عن السبب ، فقال يحيى : هم لا يفهمون عبارتي وأنا لا أفهم اصطلاحهم ... » .

وأبو هاشم المذكور هو عبد السلام أبو هاشم بن الجبائي، من شيوخ الطبقة التاسعة من المعتزلة ، توفي عام ٣٢١ هـ — ٩٣٣ م ؛ وسنفرد له فصلا في نهاية هذا البحث .

ويؤيد ذلك أيضاً ما كتبه الغزالي (٥٠٥ هـ — ١١١١ م) في كثير من كتبه مثل قوله : « إن أول أنواع الخلاف بين الفلاسفة وخصومهم (أي المتكلمين مما فيهم المعتزلة) يرجع النزاع فيه إلى مجرد اللفظ » ؛ أو كقوله : « ... ولكن المنطق ليس مخصوصاً بهم (أي الفلاسفة) ، وإنما هو الأصل الذي نسميه في فن الكلام كتاب النظر ، فغيروا عبارته إلى المنطق تهويلا ؛ وقد نسميه كتاب الجدل ، وقد نسميه مدارك العقول ، فاذا سمع المتكابس المستضعف اسم المنطق ، ظن أنه فن غريب لا يعرفه المتكلمون ، ولا يطلع عليه إلا الفلاسفة » (١) .

ثم إن المتكلمين ، وجمهور أهل السنة ، لا سيما بعد الأشعري ، مع أنهم لا يجمعون المعتزلة في صف واحد مع الفلاسفة ، إلا أنهم يعتبرونهم ، رغم هذا ، مبدعة يجب ألا تدرس آراؤهم . روى أبو حامد الغزالي أن الامام أحمد بن حنبل « أنكر على الحارث المحاسبي ـ رحمهما الله ـ تصنيفه في الرد على المعتزلة ؛ فقال الحارث : الرد على المبدعة فرض ؛ فقال أحمد : نعم ! ولكن حكيت شبههم أولا ، ثم أجبت عنها ، فهم تأمن أن يطالع جوابك مطالع الشبهة فيتعلق ذلك بفهمه ولا يلتفت إلى الجواب ، أو ينظر في الجواب فلا يعرف كنهه » (٢) .

من أجل هذا كانت معرفتنا بالآراء الفلسفية للمعتزلة ناقصة مشوهة ، لا سيما ونحن لا نملك شيئاً من مؤلفاتهم ، وقد انتهى إلينا أكثر ما نعرفه من مقالاتهم عن طريق خصومهم من المتكلمين الذين لم يكونوا في أغلب الأحايين يفهمون مقاصدهم ، وكثيراً ما يعرضونها في صيغ

(١) « تهافت الفلاسفة » ص ١٠ ، ١٥ ، ١٦ من طبعة الأب (موريس بويج Bouyges) بيروت سنة ١٩٢٧ .

(٢) « المنقذ من الضلال » ص ٢٧ ، ٢٨ من طبعة شميلدرز Schmölders في كتابه « مقالة عن المذاهب الفلسفية عند العرب » الخ . باريس سنة ١٨٤٢ « Essai sur les Ecoles philosophiques chez les Arabes »

تكشف عن الجهل بمغزاها الفلسفى الصحيح ؛ وأكثر من هذا ، فإن لغة المعتزلة ـ كما تبدو لنا فى القطع المنسوبة إليهم فى مؤلفات خصومهم وأنصارهم ـ لغة غير ثابتة ولا محدودة ، بحيث قد نجد للكلمة الواحدة فى فقرتين من نص واحد معنى عاميا ومعنى فنيا ، ثم إن المعنى الفنى قد يختلف أيضاً فى مدلوله ، فأحياناً يدل على المعنى عند الفلاسفة ، ويدل أحياناً أخرى على معناه الخاص عند المتكلمين . ومن أجل هذا كان تفسير نصوصهم على الوجه الصحيح من أشد الواجبات عناءاً وتعباً ، ومن أكثرها استلزاماً للحذر والانتباه .

والغرض من بحثنا هذا أن نبين أن المعتزلة هم أول المفكرين المسلمين الذين عالجوا الفلسفة بادئين من معان لا شك أنها إغريقية ، لا سيما من مذهب المثل الذى ينتهى كله عند الاغريق فى فلسفة أفلاطون . وهذا العمل هو فى الواقع محاولة لدرس وجه خاص للفلسفة فى أول عهدها عند المسلمين ، ونحن نعتقد أن مثل هذا الدرس لا يخلو من فائدة ، ولا سيما إذا انتبهنا إلى الزمن الذى عاش فيه هؤلاء المفكرون الذين سنشرع فى درس آرائهم ؛ وهو زمن الاعداد والتحضير للفلاسفة وللمتكلمين .

لم تكن اللغة العربية قد استلكت بعد كتابات الاغريق فى الفلسفة ، تلك الكتابات التى أصبحت فيما بعد المصدر الوحيد للفلاسفة فى بناء مذاهبهم . ومن أجل هذا وجب علينا أن نبحث فى محيطهم العقلى عن عناصر الثقافة الفلسفية التى استمد منها المعتزلة ما احتاجوا إليه لتشييد مذاهبهم .

الفصل الثانى

كان المعتزلة الذين سنتولى دراستهم مسلمين ، عاشوا فى البصرة إبان القرن الثامن والتاسع والعاشر للميلاد ، (من الثانى إلى الرابع من الهجرة) ؛ ويكادون أن يكونوا جميعاً من أصل غير عربى ، كما يدل عليه كون أغلبهم من الموالى أو العبيد المعتوقين ، ثم إنهم كانوا من خاصة أهل الثقافة ، كما يدل على ذلك اتصالهم بالخلفاء ، حيث كان يلتقى فى قصورهم خير ممثلى الثقافة فى عصرهم ؛ ثم إن المسائل التى عنوا بدرسها غير مطروحة فى القرآن فى صيغ تسمح بأن تصدر عنها مناقشات فلسفية ، وكذلك فإن الحجج التى يستعينون بها لشرح أصولهم ومقالاتهم غريبة مطلقاً عن الأدب العربى السابق .

قال ابن خلدون (١٤٠٦ م) : « إن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم ، وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية ، وإذا تشوقوا إلى معرفة شىء مما تشوق إليه النفس البشرية فى أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود ، فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى »(١) .

(١) « المقدمة » ص ٣٤٨ مطبعة التقدم بالقاهرة سنة ١٣٢٢ هـ .

وهذا هو فى الواقع ما فعل العرب عند وفاة النبى ، إذ أنهم أحسوا بالحاجة إلى أن يتمكنوا من فهم القرآن ، وأخذوا يبحثون عن تفاصيل الحوادث الكونية والتاريخية التى ورد ذكرها مجملة فى الكتاب المنزل . وتوضح لنا بقية كلام ابن خلدون النتائج الاعتقادية التى حدثت فى الاسلام فى أول عهده بتأثير الاستعانة بعلماء الدين الاسلامى الذين كانوا يهوداً قبل اعتناقهم الاسلام ؛ ذلك بأن تعوذهم وحججهم كانا سائدين فى الواقع على المؤلفات الأولى فى التفسير . لم يكن اليهود والمسيحيون الذين توجه إليهم العرب ليمتازوا عنهم فى كثير من حيث الثقافة والعلم ؛ إذ أنهم كانوا — على حسب اصطلاح ابن خلدون — بدواً وأميين مثلهم ؛ وقد كان يهود الجزيرة على الخصوص مجسمة ينسبون إلى الله صوراً جد إنسانية ، الأمر الذى حاربه فيما بعد موسى ابن ميمون (١٢٠٤ م) .

وإذن فإن العرب لم يحتكوا فى الحقيقة بالثقافة والعلم إلا بعد غزوهم الشام والعراق وفارس ، وإذ ذاك اتصلوا بأهل ديانات تهذبت علومها تحت تأثير الفلسفة الاغريقية ؛ وكذلك فإن الديانات الفارسية والهندية — التى كانت غنية بأساطيرها وبمعانيها الخاصة بالعبقرية الارية — لم تكن أجنبية عن العلوم والروح الاغريقية (١) .

كان المتأدبون من المسلمين يتلقون العلم — ولا سيما فى العراق — مع المجوس وغيرهم من الفرس ، ومع النصارى واليهود . وكان الخلفاء يستقبلون — بكرمهم المعهود — الأطباء والفلاسفة والفلكيين من الفرس والسوريين . وهنا ينبغى ألا نغفل عما فعله السوريون فى نقل الثقافة الاغريقية إلى الشرق ، وذلك لأن مقدرتهم التجارية وشغفهم بالأسفار جعل منهم خير وسطاء ؛ ثم إن الاغريق لم يغفلوا من ناحيتهم أن ينشروا أنوارهم فى الشرق الذى غزوه بالسلاح وبالاراء ، وإذا كانت فارس والهند قد استطاعتا فى زمن يسير أن تتخلصا من سيادة هذا الشعب الصغير ، فإن الثقافة الاغريقية ظلت رغم هذا سيدة ، وذلك بفضل صفاتها الانسانية على الخصوص .

وقد اعتاد ملوك فارس (الأكاسرة) — منذ القرن الرابع للميلاد — أن يستدعوا الفلاسفة اليونانيين . وفوق ذلك فإننا نعتقد أن الشرق — لا سيما الشرق الحديث الذى يهمنا الان — قد نفذت إليه فلسفة اليونان قبل هذا بكثير ، إذ أن انتشار الاراء والمعانى فى الأوساط العقلية المتحضرة لا يمكن أن يكون بطيئاً . وفى الواقع فإن الشهرستانى (٥٤٨هـ — ١١٥٣ م) حدثنا عن تلميذين رشيدين لفيثاغورس ذهبا يذيعان فلسفة أستاذهما ؛ أحدهما فى فارس

(١) قال الاستاذ ل. جوتيه L. Gauthier « ... كانت هذه الديانة (ديانة زرادشت) تشمل نظرية التثليث ، ان لم تكن كاملة صريحة ، فانها كانت تشتمل على الاقل مذهب الكلمة الالهية ، مع تصور شبيه بمذهب المثل الافلاطونى . » مقدمة لدرس الفلسفة الاسلامية ... الخ » باريس سنة ١٩٢٣ ص ٨٢ ، ٨٣
Introduction a l'étude de la philosophie musulmane Etc.

والاخر فى الهند(١) ، وفى الواقع إن مذهب الفيثاغورية ومذهب الفيثاغورية الحديثة غير غريبين عن البلاد التى فتحها العرب بين عامى ٦٣٤ و ٦٤٠ للميلاد (١٣ — ٢٠ للهجرة) .

ولمدينة حران فى العراق (على حدود سوريا) أهمية عظيمة فى هذا الشأن ، إذ أنها كانت مدينة ظلت بعيدة عن الديانات السامية ، وفيها كانت تدرس الرياضيات والفلك ، ومذاهب الفيثاغورية الحديثة والأفلاطونية الحديثة ، ولكن كان يحيط بجميع هذا مذهب روحى فلسفى ، ينتهى بديانة صوفية معروفة عند العرب باسم ديانة الصابئة .

كان للصابئة عبادة روحية يتوجهون بها إلى معلميهم « اغاذيمون Agathodeumon » و « هرمس Hermes » الذين كانوا يعتبرونهما أرباباً وآلهة ووسائل وشفعاء « عند الله وهو رب الأرباب وإله الآلهة » (٢) . ولا شك أن هذه الديانة عريقة فى حران ، وكثيراً ما يتحدث عنها الشهرستانى باعتبارها معاصرة ومقابلة لديانتى ابراهيم وموسى . وكذلك يقول ابن النديم (٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م) : « إن أول رؤساء الحرانيين جلس على كرسى الرئاسة عام ١٠٤ للاسكندر »(٣) . وكان الصابئة —على حسب شرح الشهرستانى— يقولون: «إننا نحتاج فى معرفة الله تعالى ومعرفة طاعته وأوامره وأحكامه إلى متوسط ؛ لكن ذلك المتوسط يجب أن يكون روحانياً لا جسمانياً ، وذلك لزكاء الروحانيات وطهارتها وقربها من رب الأرباب » .

ولكنهم لما لم يقتصروا فيا بعد على الروحانيات البحتة والتقرب إليها بأعيانها، فزعت جماعة منهم إلى هيا كلها، وهى السيارات السبعة وبعض الكواكب الثابتة، فصابئة الروم مفزعها السيارات، وصابئة الهنود مفزعها الثوابت(٤) . وقد عاشت ديانة الصابئة فى عهد الاسلام ، وكان أهلها يعرفون (السريانية) لغتهم الدينية ، واشتهر منهم رياضيون وفلاسفة وأطباء أمثال : ثابت ابن قرة (٢٨٩ هـ — ٩٠١ م) ؛ وابنه سنان بن ثابت (٣٣٢ هـ — ٩٤٣ م) ، وغيرهما من العلماء والمترجمين .

ومما يجدر بالملاحظة أن عبادة الكواكب التى تتصل — بالطبع — بديانة الصابئة عملت على إذاعة آراء المذهب الفيثاغورى الحديث ، ومما لا شك فيه أن العرب عرفوا هذه الديانة قبل مجيء الاسلام ، كما يثبت ذلك نص القرآن ، إذ جاء فى السورة السادسة منه (الأنعام) :

(١) الشهرستانى « الملل والنحل » ج ٣ ص ٢٣ — ٢٤ من طبعة خليفة . القاهرة سنة ١٣٤٧ .
(٢) « الكتاب المذكور » ج ٢ ص ٧٧ . ونقول بهذه المناسبة ان الاعلام الاجنبية مشوهة فى هذه الطبعة تشويهاً كبيراً .
(٣) كتاب « الفهرست » طبعة (فلوجل Flügel) لايبسك سنة ١٨٧١ ص ٣٣٦ .
(٤) الشهرستانى « الملل والنحل » ج ٢ ص ٥٧ — ٥٨ .

[البقية على الصفحة رقم ٤٤٤]